المقدمة

في العام 1900، كان معظم أهل الغرب يشعرون بالاعتزاز الهائل والثقة الكبيرة بحضارتهم، إذ كان هناك إحساس قوي، مشترك لدى الأمريكيين والبريطانيين، ولدى الأوربيين والكنديين، ولدى الأستراليين والنيوزيلنديين، بالانتماء إلى حضارة قوية، ومتوسعة، وتقدمية ومثيرة، وأفضل حضارة في كل العهود.

أما اليوم، فإن ذلك المعنى قد تلاشى، فلماذا؟ ليس بسبب الاقتصاد، أو الأحداث الخارجية أو الأعداء الخارجيين، وعلى الرغم من أهوال النصف الأول من القرن الماضي، ووفق أكثر المعايير موضوعية، فإن الحضارة الغربية قد صنعت منذ العام 1900، تقدماً مادياً، وعسكرياً، وطبياً، وعلمياً عظيماً، بل صنعت تقدماً سياسياً كذلك، وتوقف الغربيون عن قتل بعضهم بعضاً وعن تعذيب بعضهم بعضاً، وودعت الحضارة الغربية أشد عدوين لها قتلاً وترويعاً، وهما النازيون والشيوعيون، وكلاهما كان محضوناً في الغرب، فإذا كانت هناك أزمة للغرب ـ ونحن نستخدم هنا صيغة فعل الكون المفرد ـ فهي أزمة تولدت تولداً داخلياً، إنها تكمن في انهيار الغرب في الثقة بالنفس، إنها تكمن في الرؤوس الغربية، إنها تكمن في الأفكار.

وقد عبر أسامة بن لادن تعبيراً بارعاً عن الرابطة بين الأفكار والأحداث، فقد تشفّى بعد 11/9 بالقول: «قيم هذه الحضارة الغربية

قد دُمرت، وهذه الأبراج الرائعة الرمزية التي تتحدث عن الحرية، وحقوق الإنسان والإنسانية قد دمرت، فلقد تلاشت في الدخان.» وبكلمات أخرى، فإن الإرهاب يخمد الحضارة الغربية؛ لأنه يسحق بذلك الإيمان بالقيم الغربية.

هذه في الأغلب دعاية، أو هو تفكير يعبر عن الرغبة، لا عن الحقيقة.

والحقيقة أسوأ، فبغض النظر عن القاعدة، أو عن أي عدو آخر للغرب، فإن حضارته مهددة تهديداً فادحاً؛ لأن معظم الغربيين لم يبقوا الآن مؤمنين بالأفكار التي جعلت الغرب ناجحاً إلى هذه الدرجة، فإن انهيار الثقة بالنفس الغربية ليس له إلا القليل من العلاقة والارتباط مع الأعداء، وله كل شيء من العلاقة والارتباط مع التحولات الزلزالية في الأفكار والمواقف الغربية، ولذلك وبدافع الرحمة، فهناك القليل في هذه الصفحات عن السيد ابن لادن وأمثاله.

إن سؤالنا بسيط جداً، ونحن نسأل أربعة أسئلة: هل هناك أي شيء خاص بشأن الحضارة الغربية؟ لماذا كانت ناجحة على هذا النحو الكبير؟ ولماذا هي الآن مهددة؟ وهل ستبقى؟ ونحن نجيب عن هذه الأسئلة، ولو أعطينا أجوبة جريئة من البداية تماماً، فإنها ستفسد حبكة الكتاب، ولكننا نستطيع أن نعطي بعض الإيماءات.

لقد ازدهرت الحضارة الغربية أكثر من أي حضارة أخرى في الماضي أو في الحاضر ـ وكانت هذه الحضارة أكثر نجاحاً في النواحي الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وفي العلم والتقانة، وفي

الفنون، وفي تعزيز صحة مواطنيها، وثروتهم، وطول أعمارهم، وربما سعادتهم زيادة على ذلك، وبرغم جميع أخطائه العديدة الظاهرة والخطيرة، فإن الغرب يعلق أهمية على قداسة الحياة الإنسانية وكرامتها أكثر مما فعلت الحضارات الأخرى أو تفعل الآن، وعلى تعليم كل شعبها، وعلى المساواة في الفرص، وعلى حرية الفرد واستخدام مواهبه أو مواهبها، وعلى المساواة الجوهرية وأخوة الإنسانية، وعلى استئصال الانحياز ضد الأفراد والجماعات، وعلى تعزيز العلم والفنون، وعلى اختراع منتجات أفضل، وأرخص وأكثر ملاءمة للغرض، وعلى تخفيف المعاناة، وبالحكم بموجب هذه المعايير الغربية للحضارة ـ التي قد يكون الغربيون فخورين بالمناداة بها، والكثير من هذه المعايير هي طموحات إنسانية شاملة ـ نجد أنه ما من حضارة أخرى اقتربت من الإنجازات الغربية.

لقد حقق الغرب نجاحه إلى حد كبير جداً بسبب عدد من الأفكار والأفعال الأساسية التي استلهمها الغربيون ـ وأدخلوها في أنماط الفكر والسلوك المتأصلة عميقاً في اللاشعور في الغالب، ونستطيع أن نتتبع درجة كبيرة من نجاح الغرب ونعيدها إلى ست «فِكَر» رئيسة أو «عوامل نجاح» وهي ـ المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو الاقتصادي، والليبرالية، والفردية، ومن الطبيعي، أن بالإمكان القيام باختيارات أخرى لما يجعل الغرب مختلفاً ومهيمناً، ولكن الفحص المتبصر للفِكَر الست يكشف كشفاً حسناً بما فيه الكفاية طبع الحضارة الغربية وخاصياتها، ويوفر عدسة قوية لفحص تاريخ الغرب، وقوته ووحدته الجوهرية.

ولعل التركيز على هذه الفِكَر الست يعطي المزيد من الكشف أيضاً. فهو يقدِرنا كذلك على أن نرى، برغم جميع النجاحات، ما الذي يوجد خلف الانتشار الواسع لعدم الثقة في الغرب؟ فعناصر النجاح الستة، التي دعمت أساس الجرأة الغربية، قد عانت قرناً من الهجوم المستمر، وعلى وجه العموم، لم تبق هذه المعتقدات الآن تلهم الغرب أو توحده، أو تعطي الأفراد الثقة التي تعتبر جوهرية للفعل المنسق في اللاشعور، فنحن لا نستطيع، طبعاً، أن نتجنب ملاحظة وجود البرابرة على أبوابنا، ولكن الحضارات العظيمة نادراً ما تنهار بسبب الأعداء الخارجيين وحسب، فلم يكن البرابرة قادرين على تحدي الإمبراطورية الرومانية تحدياً ناجحاً إلا بعد أن صارت منحلة ومنقسمة، ولم يكن هتلر قادراً على تحطيم الحضارة الإنسانية والديمقراطية لألمانيا إلا لأن هذه الأخيرة لم تملك إلا القلائل جداً فقط من المدافعين عنها، واليوم أيضاً، تكوّن الانقسامات والعيوب الداخلية، بالنسبة إلى الغرب، التهديد الحقيقي، وهناك القليل من التقدير لما يجعل الغرب مختلفاً وقيماً على نحو فريد، والارتياب، والتشاؤم، واللامبالاة هي الموجودة كثيراً، والانجراف نحو الانتحار الجماعي واضح، وهو مُشرب في تاريخنا على نحو عميق منذ العام 1914، ومن الممكن تتبعه ورده إلى انهيار التعلق بالأفكار التي كان من عادتها أن تلهم الغرب والعالم.

ومراجعتنا للعوامل الستة، تبين، على كل حال، أنها تمتلك مرونة عظيمة وهي، في بعض الحالات، تأتي من خلال التطور الدقيق، والقوة الثابتة الضخمة، وإن الانطباعات السطحية مخطئة في الغالب،

ولكننا حين نفحص التحديات الموجهة إلى عوامل النجاح الستة في السنوات المئة الأخيرة أو ما يقاربها، سوف نرى، بالنسبة إلى كل واحد من العوامل الستة، جدية التهديد لمستقبل الغرب، ومن أجل الاختصار، سنستخدم نظاماً من ألوان «أضواء المرور»، مستخدمين «الأخضر» ليعني «لا مشكلة أساسية»، والأصفر ليعني «خطراً»، والأحمر ليعني «مشكلة خطيرة، ويمكن أن تكون مميتة».

ونستطيع أن نعِد بشيء واحد، وهو أن هذا ليس مرثية تندب حضارة مفقودة، ولا هو دعوة للعودة إلى القيم الخالدة، فإذا كانت الأفكار تحت الهجوم، فهناك عادة أسباب وجيهة جداً لذلك، على الرغم من أنها لا تكون دائماً الأسباب الواضحة، فلكي تكون الأفكار نابضة بالحيوية، يجب أن تتطور أو أن تُرمى جانباً، حين نكتشف المزيد عن الكون، وعن مجتمعنا وطبيعتنا، فهناك الكثير من الالتواءات والانعطافات في تقريرنا، والاستنتاجات التي وصلنا إليها ليست كلها بالتأكيد مظلمة تبعث على اليأس.

ماذا نعني «بالغرب»؟

نعني به البلدان التي استوطنها الأوروبيون، والسكان فيها يشكلون أكثرية واضحة من شعب من سلالة أوروبية، والثقافات والأفكار مشتقة إلى حد كبير من أوروبة، وماذا يعني هذا اليوم؟ باختصار، أمريكا الشمالية، وأوروبة، وأستراليا.

دعونا نقر من بداية الانطلاق أن «الغرب» مفهوم تحكمي، وأنه في الغالب مفهوم فيه مفارقة تاريخية، وهو مفهوم مضلل من حيث الوصف، وأننا غير مرتاحين مع العديد من المضامين الجغرافية والإيديولوجية التي اكتسبها مفهوم الغرب في السنوات المئة الأخيرة، ولعبة مقابلة الغرب الفاضل بالشرق الأقل فضيلة بدأت منذ اليونان القدماء، الذين استخدموا «الغرب» ليعني اليونان الحرة، واستخدموا «الشرق» ليعني الاستبداد الفارسي، فهذه ليست لعبتنا، نظراً إلى أن وجهة نظرنا في أوروبة (والغرب تبعاً لذلك) تشمل أوروبة الشرقية، فأوروبة الغربية والشرقية لا تشتركان فقط بتاريخ مشترك، ولكنهما أسهمتا كلتاهما أيضاً في موجات مهمة من المهاجرين إلى أمريكا. فكر، مثلاً، في أهمية المجتمعات اليونانية، واليهودية، والبولندية، والأوكرانية لأمريكا.

وعلى الرغم من تحفظاتنا بشأن الاسم، فإننا نستخدم «الغرب» و«الحضارة الغربية» لأن ذلك اللفظ كان طوال أكثر من مئة عام هو اللفظ المقبول عموماً للثقافة وللواقع السياسي لأمريكا وأوروبة، ولا يستطيع أي مؤرخ أو عالم اجتماع أن ينازع في الأصول الأوروبية لمعظم الأمريكيين أو التشابه في الثقافة ونظرة الأوروبيين والأمريكيين، ودعنا نكرر – مع ذلك – أن «الغرب» بالنسبة إلينا يشمل أوروبة الشرقية، ومناطق أوروبة الغربية مثل أيرلندا، وإسبانيا، والبرتغال التي غالباً ما يغفلها المعلقون «الغربيون»، ويشمل بلاداً مثل كندا، وأستراليا، ونيوزيلندا التي تضم بشكل رئيس أحفاد المستوطنين الأوروبيين والتي مازالت الثقافة الأوروبية سائدة فيها.

ماذا نعني «بالانتحار»؟

الانتحار الفردي هو النهاية الطوعية الذاتية التي يفرضها الإنسان بنفسه على حياته، وانتحار حضارة هو النهاية الطوعية الذاتية التي تفرضها تلك الحضارة بنفسها على نفسها، ويعطي معجم تشامبرز أحد التعريفات للانتحار بوصفه «تسبُّب الإنسان بسقوطه الخاص، بشكل غير عمدي في الغالب»[1] ذلك هو ما نعنيه بالانتحار المحتمل للغرب: النهاية العرضية غير المقصودة لحضارة عظيمة، نهاية لم يصنعها الأعداء الخارجيون، ولكن صنعها الغربيون بما يفعلونه، وبما يخفقون في أن يفعلوه.

ونحن نعني الإخفاق في حل التناقضات في المجتمع الغربي بطريقة تحفظ معها المثل العليا الغربية، وبتعابير عملية، فنحن نعني إما الانتحار البيئي، أو، وهو أكثر احتمالاً، تحول المجتمع الغربي إلى حضارة أخرى، حضارة لا تقوم على الفِكَر الرئيسة الست التي حددناها بوصفها لب القيم الغربية، فهناك اتجاهات في المجتمع الغربي استمرت في النمو طوال القرن الماضي، ولكنها لم تكن واضحة وضوحاً جلياً إلا في السنوات العشرين (20) أو الثلاثين (30) الأخيرة، وهي اتجاهات إن استمرت، فسوف تجعل المجتمع مختلفاً تماماً، مختلفاً عن أهدافه التاريخية ومثله العليا، ومختلفاً عن الحقيقة

(1) يمكن للمرء أن يسأل كيف يمكن أن يكون الانتحار في أي وقت غير عمدي، ولكن انظر في الملاحظات العامة وفق خطوط القول: «ذلك الخطاب كان انتحاراً سياسياً».

الواقعة التي كانت تقترب أكثر، فأكثر طوال عدة مئات من السنين، وسوف نرى التغيرات واضحة في مناقشة كل فكرة من الفِكَر الست الكبيرة التي جعلت الحضارة الغربية تعمل على هذا النحو الجيد، ولكن التغيرات باختصار هي إنكار المسؤولية الشخصية لتحسين الإنسان لنفسه وللمجتمع، وإنكار كل ما يسير مع المثل العليا الليبرالية.

سوف نبين، أن الحضارة الغربية، مختلفة اختلافاً هائلاً عن الحضارات الماضية أو الحاضرة الأخرى، وأنها مختلفة وأكثر نجاحاً بسبب الأفكار المتجذرة فيها على نحو عميق ـ وهي متجذرة على نحو عميق إلى درجة لا نتوقف معها للتفكير فيها ـ وبسبب السلوك الذي تستدعيه، وفي قلب الحضارة الغربية يقوم شخص قلق، يتقدم بنفسه، ويحسن نفسه، ومتفائل، وعقلاني، ومسيطر، وهو ـ مع هذا أيضاً ـ بمعنى من المعاني فرد مثالي، وشخص ذاهب إلى مكان ما، ويؤمن بنفسه وبدوره في المجتمع، رجلا كان أو امرأة.

أطروحتنا هي أن الفرد الذي يحسّن نفسه، والواثق، والمسؤول، والمتجذر تجذراً كاملاً في مجتمع ليبرالي مع إحساس بالواجب نحو ذلك المجتمع، هو الفرد الذي يتلاشى الآن تدريجياً، وفي مكان الإيمان لدينا اللاأدريّة أو النسبية، وفي مكان التفاؤل لدينا الجبرية، وفي مكان الإحساس بالتقدم لدينا التحذيرات المسبقة، وفي مكان الأحلام لدينا الكوابيس.

في مكان التوفير والإشباع المؤجل للرغبات لدينا الاستهلاك. وفي مكان الكفاح لدينا العاطفية، وفي مكان المسؤولية نحو الآخرين، لدينا،

بالنسبة إلى الكثيرين، الإحساس بكونهم ضحية، وبالنسبة إلى كثيرين جداً آخرين، لدينا الدافع الكاسح نحو العناية برقم واحد، وفي مكان المثالية لدينا الارتياب، وفي مكان المعنى والهدف لدينا المال، وفي مكان العقل لدينا العواطف. وفي مكان الحكمة لدينا الخبراء، وفي مكان الثقافة لدينا الثقافات الفرعية، وفي مكان الجدية لدينا التفاهة والإفراط في اتباع شهوات النفس، وفي مكان الخبرة الصلبة لدينا الضحالة، وفي مكان المخاطرة برغم اليأس، لدينا الاكتئاب، وفي مكان نماذج الدور الأصيل، لدينا المشاهير المملون. وفي مكان السلطة أو الإجماع لدينا الاختلاف، وفي مكان المجتمع لدينا التشظي.

المسألة ليست أن الغربيين اليوم أسوأ مما كانوا عليه قبل أجيال سبقت، بل إن المرء لَيستطيع أن يناقش في أن السلوك الأخلاقي، وهو أبعد ما يكون عن الانهيار، قد تقدم بالفعل، وإذا كنا نفكر في الأشياء على أنها سيئة، فذلك مرده في جزء منه إلى أننا الآن أكثر تحسساً نحو الظلم، ولأن المعايير التي نحكم بموجبها على أنفسنا، وعلى حضارتنا، قد تقدمت تقدماً قابلاً للإبانة، ففي كل أنحاء الغرب هناك الآن تمييز أقل ضد جماعات الأقليات وضد النساء، ومساعدة أكبر للفقراء، وقسوة أقل نحو الأطفال والحيوانات، واهتمام أكبر بالبيئة، وعنصرية عرقية علنية أقل، وقومية مؤذية أقل، وعطاء خيري أكثر انتشاراً من أي وقت مضى سابقاً، ومن حيث النسبة المئوية من السكان، فنحن نقتل من مواطنينا الخاصين، ومن أعدائنا أقل بكثير مما اعتدنا أن نفعل.

نزاعنا ليس في أن المعايير الأخلاقية قد صعدت أو هبطت ـ لأنها بالتأكيد ذهبت في الاتجاهين ـ ولكن نزاعنا هو أن أفكارنا قد تغيرت، وأن ثقتنا في أفكار رئيسة معينة قد انحدرت، أو هي في بعض الحالات قد انهارت تقريباً، فإذا كانت الأفكار التي لم نبقَ مؤمنين بها الآن هي التي كانت مسؤولة عن نجاحنا الفريد بوصفنا حضارة، فنحن إذن في مشكلة عميقة، ونحن نعتقد أننا نبين عملياً أن المسألة هي كذلك.

إن قلب تحقيقنا وأساسه هو التساؤل: هل نستطيع أن نقاوم الاتجاهات التي تدفع الحضارة الغربية نحو الاندثار ونعكسها؟ أو هل هذه الاتجاهات حتمية من الناحية الهيكلية؟ أحياناً، وربما عادة، ليس هناك أسباب جيدة للانتحار، ومع ذلك يكون الانتحار محتوماً: إنه يُفرض على النفس ذاتياً طواعية لا غير، أو، بدقة أكبر، يفرض على النفس من أفكار النفس، وذلك خلافاً لرؤية أكثر«حساسية» عن الواقع، والطريقة الوحيدة لتجنب الانتحار هي إعادة بناء الطريقة التي نفكر فيها بأنفسنا، وهذا قد يكون مستحيلاً.

شبحا إشبنغلر وبيرنهام

كان كتاب انهيار الغرب واحداً من أكثر الكتب تأثيراً في القرن الأخير لمؤلفه أوزولد إشبنغلر، مدير المدرسة الألماني[1]، وقد صدر المجلد الأول في العام 1918، مع ثناء ضخم من أبناء بلاده، وعمل إشبنغلر غامض غير مفهوم، وفيه إسهاب، ومع ذلك فهناك ومضات

(1) أوزولد إشبنغلر (1991) انهيار الغرب، مطبعة جامعة أوكسفورد، أوكسفورد.

من البصيرة اللامعة، والكتاب مذهل في مداه وفي علمه، ولم يشرح إشبنغلر أبداً ما عناه لا «بالغرب» ولا «بالانهيار»، وهو ما يجعل تلخيص أطروحته مستحيلاً، وبغض النظر عن ذلك، فإن ما أعطاه إشبنغلر للعالم كان تعبيراً مثيراً مستفزاً، فهو، بمعنى من المعاني، غيَّر تغييراً دائماً إدراكَ الغرب وفهمه وإدراك الغرب لذاته وفهمها، وربَطه بالانهيار، وكانت الحضارة الغربية، مهما يكن ما عناه بذلك، ظاهرة معاصرة، مقدراً لها السقوط مثلما كانت قد نهضت تماماً.

و«الانهيار» مهما يكن معناه، فليس هو نفس الانتحار، ونحن لسنا إشبنغلَرِّيين جديدين، ومنذ أن كتب إشبنغلر كتابه، قامت أمريكا وأوروبة بخطوات هائلة إلى الأمام بناء على كل معيار تقريباً يحدد حيوية حضارة، ومن غير ريب في العلم، وفي تجديد الأعمال ومستويات المعيشة، وفي العلوم الإنسانية والفنون، وفي كل أشكال الموسيقا، وفي القوة العسكرية وفي السلام داخل الغرب، وأي شخص يناقش في أن الغرب في انهيار سيكون محرفاً للمعاني العقلية، وذا مهارة هائلة، وذا خفة يد في الشعوذة.

وفي العام 1964، نشر المنظر السياسي جيمس بيرنهام كتاب انتحار الغرب مع عنوان فرعي هو معنى الليبرالية وقدرها[1]، وهو مادة قراءة رائعة، ويمكن تلخيص الأطروحة بسهولة. ويبدأ بيرنهام بملاحظة أن الغرب تقلص بين العامين 1900 و 1960 تقلصاً لافتاً للنظر في الأرض، وعدد السكان.

(1) جيمس بيرنهام (1965، 11964) انتحار الغرب: معنى الليبرالية وقدرها. جوناثان كيب، لندن.

وهو يسأل لماذا؟

لا نستطيع أن نفسر تقلص الغرب بأي نقص في الموارد الاقتصادية أو العسكرية أو القوة السياسية ....

لذلك يجب علينا أن نستنتج أن الأسباب الرئيسة لتقلص الغرب ـ لا الأسباب الوحيدة، ولكن الأسباب الكافية والمحدِّدة ـ كانت داخلية وغير كميّة، وتتضمن إما التغيير الهيكلي أو العوامل الفكرية، والأخلاقية والروحية... وإلى حد معين «إرادة البقاء ...»

بيرنهام الذي كان في السابق تابعاً رومانسياً لتروتسكي، ولكنه مع حلول العام 1964كان رومانسياً محافظاً، ومتشائماً ومناوئاً عنيفاً للشيوعية، يشرح الانسحاب الإداري للغرب من الإمبراطورية، ومن مجابهة الشيوعية نتيجة «لليبرالية»، ويقول: إن انتشار الأفكار الليبرالية، حيث «يكون العدو المفَضّل إلى اليمين»، يجعل من المستحيل عليها أن ترى تحديات العالم الحقيقي رؤية صحيحة:

أنا أعتقد أن التحديات الحاضرة الحاسمة ثلاثة: **الأول**: هو أن الغابة تنتشر الآن في مجتمعنا الخاص بنا، وعلى وجه الخصوص في المدن الكبيرة، **والثاني**: هو النمو الانفجاري للسكان والتنشيط السياسي ضمن مناطق العالم المتخلف، وبشكل رئيس... المناطق المحتلة، من غير جماهير البيض، **والثالث**: هو اندفاع المشروع الشيوعي من أجل احتكار القوة العالمية.

من المستحيل حين النظر من خلال زجاج الليبرالية رؤية هذه التحديات بوضوح...

ونحن ننهي دائرتنا في نقطة البداية: الليبرالية هي إيديولوجية الانتحار الغربي... يجب أن تُفهم إيديولوجية الليبرالية الحديثة بوصفها هي نفسها واحداً من تعابير التناقض والانهيار الغربيين، ونوعاً من الظاهرة الثانوية أو الغموض الضبابي المرافق لمسيرة التاريخ، وأغنية وداعية جميلة من بجعة تموت، وعزاء روحياً من نفس الطبقة التي تصدر عنها همهمة أم لطفل مريض مرضاً خطيراً، وهناك فعلاً براعة باهرة في التعبير الليبرالي عن الهزيمة بوصفها نصراً، وعن الاستسلام بوصفه ولاء، وعن الجبن بوصفه شجاعة...

إن الليبرالية تسمح للحضارة الغربية بأن تكون متصالحة مع فنائها.

يجب أن يكون واضحاً من النثر الرائع الذي كتبه بيرنهام، أننا حين نتقمص عنوان كتابه، لا نشترك في أطروحته، وفي رأينا أن القضية التي يفترضها بيرنهام ـ وهي أن التخلي الطوعي عن الإمبراطورية ينذر بانتحار حضارة ـ هي قضية تعاني عيباً عميقاً، فبالنسبة إلى حضارة بُنيت لأكثر من ألفي سنة على الأقل، فإن كون الإمبراطورية قد خليت هو أمر من أصل حديث جداً، وهو أمر فائض عن المتطلبات، والأمم التي استُعمِرت، ثم نزع عنها الاستعمار، لم تتشرب، بصفة عامة، ثقافة الإمبراطوريات الغربية ذات العلاقة، لقد قهرت تلك الأمم ثم حررت، وبين العام 1875 والعام 1895 ـ وهي مدة فاصلة

قصيرة في تاريخ أوروبة الطويل ـ غرس المستعمرون الإمبراطوريون الأوروبيون أعلامهم على أكثر من ربع أرض الكوكب، وإن هذا الانحراف المجنون هو الذي يحتاج إلى التفسير، لا نقيضه، ومهما يكن أثر إزالة الاستعمار من العالم الثالث، فإن اقتصاد الغرب بعد ذلك ذهب من قوة إلى قوة.

مع فائدة النظر بعد حدوث الأمر، نستطيع أن نرى أن بيرنهام قد وصل إلى النتيجة الخطأ بشكل كامل، فلم يكن الغرب هو الذي انهار بسبب الليبرالية، بل كانت هي الشيوعية.

ومن دون جاذبية الازدهار والحرية الغربيين، ما كان شعب أوروبة الشرقية قد أزال جدار برلين واحتشد من خلاله في العام 1989، ولا كان سادتهم السوفييت وقفوا جانباً متراخين وسمحوا لحضارتهم أن تختفي من تلقاء نفسها بإرادتها[1].

الاتجاهات في مقابل الرغبات

لقد حاولنا أن نفصل رغباتنا الخاصة عن تحليل ما يحدث، وهذا ليس جدلاً، ولا هو تاريخ، ولا تاريخ أفكار كذلك، وإنما هو بالأحرى تحليل للتاريخ وللأفكار للإجابة عن أربعة أسئلة محددة ـ حول نجاح الحضارة الغربية وبقائها ـ وهي الأسئلة التي طرحناها في البداية،

(1) يقال: إن ميخائيل غورباتشوف، حين زار سوقاً كنديّاً كبيرًا (سوبر ماركت) كان مذهولاً من السلع المعروضة، حتى إنه ذهب إلى الاستنتاج بأن السوق قد أنشئت خصيصاً لزيارته، وحين اقتنع في نهاية المطاف أن مثل هذه الوفرة كانت أمراً شائعاً عادياً، بدأ إيمانه بالشيوعية يذوي.

ولا مناص، من أن وصفنا، سوف يتلون، من وقت إلى آخر، بإدراكاتنا المسبقة، وآرائنا، وتاريخنا الشخصي وخبراتنا الشخصية، ولكننا في الفصل الأخير فقط سمحنا لأنفسنا برفاهية إعطاء وجهات نظرنا الواضحة في مضامين تحليلنا، ولقد جئنا إلى هذه المهمة من خلفيات مختلفة ـ داعية مذهب حرية الإرادة محافظ رجل أعمال، وداعية مذهب حرية الإرادة سياسي من اليسار الديمقراطي ـ ولكننا وصلنا إلى استنتاج مشترك، استنتاج نعتقد أنه أصيل ومهم في آن.

obeikandl.com